الركن الثاني . الفروسية . امدّها برجال الشهامة وروح الاستقلال الشخصي فخدموها بانفسهم

الركن الثالث الحروب الصليبية . نقلت الى اوربا مفاخر الشرق وصدّت عنها ويلاته

الركن الرابع . فتح القسطنطينية . جمع احساسات الاوربيين وزاد عدد الافضل المهاجرين اليها فخدمها بترقية العلوم

الركن الخامس . الطباعة اوقدت سراج الآداب في اوربا وسهلت انتشار المعارف فيها فخدمتها نمو المعارف

الركن السادس . الاكتشافات البحرية . زادت حركة الصناعة والتجارة . ومنحت حرية الافكار ملجأً . فخدمتها بالمال والعلم

الركن السابع . الاصلاح الديني . امدّ اوربا برجال الافكار الحرة والنظامات الجديدة وايقظ روح البحث والاصلاح في كل مكان وهذه الاركان السبعة متناسبة كما يأتي

الاركان الثلاثة الاولى متصلة بعضها ببعض لان المدارس ايقظت روح الادراك في الناس والفروسية روح الشهامة وقد اجتمع الاثنان في الحملات الصليبية

والاركان الثلاثة الاخيرة متصلة ايضاً لان الاصلاح منح اوربا حرية الفكر والطباعة ساعدت في سرعة نشر هذه الحرية واميركا كانت ملجأً المهاجرين بسببها

اما فتح القسطنطينية فقد كان الحلقة المتوسطة بين هذه وبين تلك وهو الفارق بين التاريخ المتوسط والحديث وبهِ دخلت اوربا في طور جديد واستعد العالم لمستقبل عظيم

(خادم للانسانية)

نظام الملك والمدرسة النظامية

يرى الناظر في ماضي الشرق العربي ان قد قام فيهِ رجال عظام اتوا بجلائل الاعمال وامتازوا بشرائف الخصال فاشار التاريخ الى بعضهم واغفل ذكر الآخرين . وممن استحق ان يذكر بالحمدة على المدى نظام الملك احد وزراء الدولة السلجوقية التركية المتوفّى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ مسيحية) وهو من افراد رجال الشرق يندر ان ينتج لدولة مثلهُ في قرن او قرنين . ويؤخذ مما قالهُ العماد الكاتب الاصفهاني في تاريخ دولة آل سلجوق ان علامة نظام الملك كانت "الحمد لله على نعمهِ" وانهُ كان مؤيّدًا موفقًا والدهماء ساكنة في ايامهِ واهل الدين والعلم والفضائل ناعمون في انعامهِ . قال وفي ايامهِ نشأ للناس اولاد نجباء وتوفّر على تهذيب الابناء

الآباء ليحضروهم في مجلسهِ ويحظوا بتقريبهِ فانهُ كان يرشح كل احد لمنصب يصلح لهُ بمقدار ما يرى فيهِ من الرشد والفضل ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى لهُ مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب

وظهر من تدبيرهِ في سياسة الممالك ما قالهُ سليمان بن عبد الملك عجبت لهؤلاء الاعاجم ملكوا الف سنة فلم يحتاجوا الينا ساعة وملكنا مائة سنة لم نستغنِ عنهم ساعة . قال العماد وفي عصرهِ نشأ طبقات الكتَّاب الجياد وفرعوا المناصب وولوا المراتب ولم يزل بابهُ مجمع الفضلاء وملجأ العلماء وكان ناقدًا بصيرًا ينقب عن احوال كل منهم ويسأل عن تصرفاتهِ وخبرتهِ ومعرفتهِ فمن تفرس فيهِ صلاحية الولاية ولاهُ ومن رأى الانتفاع بعلمهِ اغناهُ ورتب لهُ ما يكفيهِ من جدواهُ حتى ينقطع الى افادة العلم ونشرهِ وربما سيرهُ الى اقليم خالٍ من العلم ليحلي بهِ عاطلهُ ويحيي بهِ حقهُ ويميت باطلهُ

تولى الوزارة والملك قد اختلَّ نظامهُ والدين قد تبدلت احكامهُ في اواخر دولة الديلم واوائل دولة الترك وقد خربت الممالك بين إقبال هذه وإدبار تلك. واقفرت البلاد واقوت واستولت الايدي العادية عليها فاعاد الملك الى النظام والدين الى القوام وعمَّر الولايات ووالى العمارات. وكانت العادة جارية بجباية الاموال من البلاد وصرفها الى الاجناد ولم يكن لاحد من قبل إقطاع فرأى نظام الملك ان الاموال لا تحصل من البلاد لاختلالها ففرَّقها على الاجناد إقطاعًا فتوفرت دواعيهم على عمارتها وعادت في اقصر مدة الى احسن حالة . وكان للسلطان نساء يدلون بنسبهِ ويدلون بسببهِ ويستطيلون بانهم ذوو قرابتهِ فقصر ايديهم وساس جمهورهم بتدبيرهِ وربما قرر لواحد من الجند الف دينار في السنة فوجه نصفهُ على بلدٍ من الروم ونصفهُ على وجهٍ في اقصى خراسان وصاحب القرار راضٍ وتوقيعهُ مأمون التعويق فقسم الملك الذي حازهُ السيف بقلمهِ احسن تقسيم. وكان ينظر في الاوقاف والمصالح ويرتب عليها الامناء ويشدد في امرها ويخوّف من وزرها ويرغب في اجرها ويكلها الى الأمنة ولا يدعها مأكلة للخوَنة

ووظف على ملوك الاطراف وعلى اقاليم الممالك والامصار حمولاً لخزانة السلطان يحملونها وخدماً عن عصمة ولايتهم يوصلونها وقرر موالاة الخدمات للحضرة والوصول بالعساكر الجمة حتى ملأ الخزائن بالذخائر والملأ بالعساكر . ونشأ لهُ اولاد كبروا في دولتهِ فاعلى رتبهم . ثم انهُ لما وفر الاموال على الخزانة والعسكر وجعل فيها لارباب العلوم واصحاب الحقوق حقوقًا ورسومًا وصيّر احسان السلطان بين اهل العلم ميراثًا يأخذونهُ بقدر الفرائض ويأمنون بهِ من النوائب والعوارض فلا جرم تذللت لهُ المصاعب وتيسرت لهُ المطالب

هذا هو الرجل الشرقي العظيم وامثالهُ قلائل في كل دولة وملة . ومن الاسف ان اهل المشرق نسوهُ مع مَن نسوا من عظمائهم

***

اختلفت الروايات في اول مدرسة عُرفت في الاسلام فردَّ قوم تاريخها الى زمن الا مويين وانكر فريق ذلك وقال انها لم تُعهد الاَّ بعدهم بزمن طويل . وما اظن ما قالهُ كثيرون مثل اغست لوبون في كتابهِ حضارة العرب من ان العرب لما دخلوا دمشق كثرت المدارس في كل مكان فارتقى العرب من التلمذة الى المشيخة وزهت العلوم كل الزهو ما اظن ذلك الاَّ قولاً مبالغاً فيهِ وكلاماً أُلقي على عواهنهِ لان العرب كانوا في القرن الاول ونصف الثاني بصدد الفتح ولم تكن الحضارة الرومية والفارسية انتقلت اليهم وتسلسلت فيهم او صفا جو سياستهم ليتفرغوا للعلم واعمال العمران

فالمدارس في الاسلام لم تعهد اذًا الاَّ في القرن الثالث كما يستفاد من قول المؤرخين الثقات . قال وستنفيلد الالماني في كتابهِ تاريخ آداب اللغة العربية انهُ كان في كل الجوامع مدارس ابتدائية في الصدر الاول تعلم مبادي القراءة والكتابة والقرآن والنحو ثم شيَّد الخلفاء مدارس في بغداد والبصرة وبخارى ودمشق وسمرقند حتى صير بعضهم المدارس مجامع علماء. وقال بروكلن الالماني في كتابهِ تاريخ آداب اللغة العربية ان كسرى انوشروان أسس في جنديسابور سنة ٥٣٠ م مدرسة للحكمة والطب بقيت الى اوائل زمن العباسيين وان المأمون أسس بيت الحكمة في بغداد لتعليم علم اليونان

ويظهر من هذا ان مدرسة الازهر أُسست بعد ما اسسهُ المأمون اي في وائل القرن الرابع كما ان الحاكم بامر الله اسس دار العلوم في مصر وان المدارس الخاصة بتعليم الطبيعة والطب كانت غير المدارس المعدَّة لتعليم العلوم اللسانية والدينية

كان نظام الملك اول مؤسس للمدارس على النحو المعروف لتعليم العلم خاصة وهو الذي قرر المعاليم للطلبة والمشاهرات للاساتذة ولهُ من الآثار الكثيرة في العراق وخراسان ما حسن ذكرهُ وأثرهُ. والمدرسة النظامية التي أسسها في بغداد واسطة عقد حسناتهِ ودرة تاج مفاخرهِ أسسها كلية عظيمة تقرأ فيها علوم الدين والدنيا ووسَّد امر تدريسها الى اعاظم العلماء في عصرهِ مثل ابي القاسم الدبوسي وابي عبدالله الطبري وابي محمد الشيرازي وابي حامد الغزالي وضياء الدين السهروردي وابي القاسم القشيري وابي منصور الوزان وابي اسحق الشيرازي ومئات غيرهم ممن خدموا الاسلام بعلمهم وعملهم

والظاهر ان عمر المدرسة النظامية لم يطل كثيراً شأن الاخيار في الاعمار فقد طرأ عليها الحريق مرات الاَّ انها أُعيدت الى حالتها السابقة . سألت الاستاذ الفاضل الزهاوي من علماء بغداد عما آل اليهِ امر هذه المدرسة اليوم فكتب اليّ يقول : كانت النظامية واقعة في وسط الجانب الشرقي من دجلة وهي اليوم معدومة لم يبقَ منها عين ولا أثر الاَّ قاعدة المنارة وهي مظيخ لبيت احد اليهود واما ارضها فقسم كبير من محلات اليهود يحتوي على شوارع وبيوت كثيرة لهم . وكان اول خرابها منذ نحو اربعمائة سنة وعدد غرفها التي كانت مُعدَّة للطلاب والمتعلمين لكل قسم من اقسام العلوم ثلثمائة وخمس وستون غرفة بعدد ايام السنة هذا عدا قاعات التدريس ومحافل المطارحات العلمية ومحلات الطبخ واماكن الراحة ومتنزهها الواسع البديع ومصلاَّها الكبير وهي شقيقة المدرسة المستنصرية في بغداد التي حولت منذ عهد غير بعيد الى جمرك والمنسوبة للمستنصر بالله وهي في الرصافة على ضفة دجلة ولم تزل الى يومنا هذا رفيعة البنيان مشيدة الاركان

هذا ما لفتهُ من احوال النظامية اعظم كليات المسلمين وعسى ان يوفق بعض كتابنا للوقوف على تفصيل اوفى بالغرض مثل نظام الدروس فيها واحوالها وغير ذلك . وربما يعجب المتأمل مما جرى للعاديات والآثار في الشرق وكيف انها لم تقوَ على صروف الدهر في حين ان الغرب على همجية ابنائهِ في القرون الوسطى لم يبرح محتفظاً بجميع آثارهِ وهذه بولونيا فان فيها اقدم كلية باوربا قائمة على امتن الدعائم . ولا علة لذلك فيما احسب الاَّ ان معظم حكام الشرق جهلة لا يريدون ان يشاهدوا آثار اسلافهم ويشق عليهم الاَّ ان يستأثروا دونهم بالعيش البعيد فكلما ولي احدهم لا يأتي من العمل اكثر من طمس اسم سلفهِ ليحل محلهُ اسمهُ ولو قدر الملوك السالفون ان يهدموا الاهرام وغيرها من الآثار الباقية على الادهار لما قصروا ساعة وعلى العكس في الغرب فان المتأخر يصلح ما بدأ بهِ المتقدم وهكذا حتى يستقيم الحال فحبذا من كتب على الشرق ان يُثنى بآثارهِ ورجالهِ وعلى الغرب ان يحيا بهما

***

وبعد تسطير ما تقدم ورد اليّ ما تفضل وكتبهُ الاستاذ الفاضل المحقق محمود شكري الفندي الآلوسي البغدادي قال فيهِ :

النظامية اقدم مدرسة في مدينة دار السلام واول بيت وضع للعلم في بلاد الاسلام كانت في جانب الرصافة وهو الجانب الشرقي من بغداد بناها ابو علي الحسن بن علي بن اسحق ابن عباس الملقب بنظام الملك قوام الدين الطوسي وكان ابتداء تأسيسها على ما ذكرهُ ابو

الحسن محمد بن هلال الصابي في تاريخهِ في ذي الحجة سنة سبع وخمسين واربعمائة والانتهاء من عمارتها سنة تسع وخمسين واربعمائة وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من تلك السنة .

كان هذا الوزير من ابناء الفلاحين واشتغل بالحديث والفقه وسائر العلوم ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليهِ في مدينة الري وكان يكتب لهُ فكان يصادرهُ في كل سنة فيهرب منهُ وقصد داود بن ميكائيل السلجوقي والد السلطان الب ارسلان ملك ما وراء النهر وخراسان وكثير من الانحاء فظهر لهُ منهُ النصح والمحبة فسلمهُ الى ولدهِ الب ارسلان وقال لهُ اتخذهُ والدًا ولا تخالفهُ في ما يشير بهِ فلما ملك الب ارسلان وازدحم اولادهُ على الملك وطلب المملكة لولدهِ ملك شاه فصار الامر كلهُ لنظام الملك وليس للسلطان الاَّ التخت والعيد واقام على ذلك عشرين سنة . بنى المجالس والربط والمساجد وبنى المدرسة النظامية في نيسابور والمدرسة النظامية في هراة وهو اول مرة انشأ المدارس فاقتدى بهِ الناس والمدرسة النظامية التي انشأها في بغداد من اعظم آثارهِ ومبراتهِ

كانت النظامية في بغداد منقطعة القرين كأنها روضة من رياض الجنة قصدها افاضل اهل العصر وفقهاؤهم والمجتهدون منهم والمقلدون والادباء وسائر اهل العلم والفضل على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم حتى كان من يدخلها يسمع دويًّا كدوي النحل ويرى عددًا وافرًا من الطلاب وقد خُصَّ كل منهم من ذوي الحاجات ومن تردد اليها لاقامة دروس العلم على اختلاف فنونهِ وظائف وجرايات تكفيهم امر طعامهم ولباسهم وضروريات معاشهم

ثم افاض الاستاذ المشار اليهِ في وصف المدرسة وتعداد بعض من درسوا فيها مع تراجمهم وما قيل في رثاء المدرسة مما تضيق عنهُ هذه المجالة وتخرجنا عن الموضوع قال في وصفها انها كانت مستطيلة البناء واسعة الفناء فيها محل معد للدروس ومصلًّى فسيح وحجر كثيرة للطلاب ومواضع تخص رؤساء العلم والمدرسين واخرى لادخار الذخائر . كانت ذات طبقتين من البناء مرفوعة الجدران عقدت في اطرافها اروقة وطاقات مستديرة الشكل تنتهي الى ذلك البنيان المشيد وقد فرشت ساحتها بالمرمر الذي كان اشدَّ ملاسة من راحة الفتاة وصفحة المرآة وقد قطع ذلك الحجر على الشكل المربع لزيادة إحكام بعضهِ ببعض وكانت فيها خزانة كتب اشتملت على تصانيف الائمة الماضين وعلوم الاولين والآخرين جمعت من الآفاق بطائل الاموال واذن لاهل العلم في ان يتناوبوها متى شاءوا

ولا يظن من سمع بما كانت عليهِ بغداد ايام الدولة العباسية ان وصفًا من اوصافها اواثرًا من آثارها قد بقي الى هذه الايام بل لم يبقَ منها الاَّ بعض الاسماء والاعلام

درست الاَّ بقايا اسطر سمح الدهر بها ثم محاها

وكذلك النظامية لم ندرك نحن ولا آباؤنا حجرًا من احجارها ومن رأى محلها اليوم اخذتهُ الحيرة وذهب بهِ العجب كل مذهب . . . . انتهى محمد كردعلي

[المقتطف] اطَّلعنا على الرثاء الذي انشاز اليهِ حضرة الكاتب وهو لاحد ادباء بغداد وفضلائها وممَّا قالهُ فيهِ

قوَّضَ الدهر بالخراب عمادي ورمتني يداهُ بالانكادِ
كم انادي وليس لي من مجيبٍ واخراباهُ مجهرةً كم انادي
طالما رفرفت من العلم رايا ت تخار مني على بغدادِ
طالما طاولت ذرى القمم الشمِّ م حصوني بفضلها المستجادِ
كنت في العلم روضة باكرت از هارها الغر بالعهاد الغوادي
كم رنت بي مناظر العلم حتى كنتُ منها بها مكان السوادِ
والغزاليُّ سائلٌ وابا اسحقَ م عمَّا حويتُ من ارشادِ
قد رمتني صواعق الدهر فاعتدَّ م بنائي وصرتُ بعض الوهادِ

والمرثاة طويلة مفجعة ولكن ما تنع الرثاء وماجدوى البكاء وليس في الزوراء رجال تنهض بهم هممهم الى مناصبة الافساد ومجاذبة الاصلاح

توما رَيْت واسعاد المجرمين

سبقت منا الاشارة في مقالة (اصلاح السجون) الى عزمنا على الحاقها بتتمتها (اسعاد المجرمين) . وقد انصرف الهمُّ منذ ذلك الحين الى مسائل اخرى لم تكن في البال حتى وقع الينا لايامٍ قليلة كلامٌ من احد الالبَّاء الاكارم في حديثٍ عن منافع التاريخ قال فيهِ " ان اشدَّ ما أرى بلادنا في حاجةٍ اليهِ اليوم من ابواب التاريخ هو تراجم مشاهير الارض الذين قاموا في مختلف البلدان فرفعوا منار الانسانية في كشف حقيقةٍ او اصلاح حال " فانهض هذا القول همتنا ونبهنا الى انجاز ما وعدنا بهِ في تلك المقالة آسفين على الامهال وقلنا هو خيرٌ على كل حال من الاهمال — :

مهما يكن من امر النجاح في اصلاح حال مكان السجون وهم وراء تلك الاسوار فلا يزالون في حاجةٍ الى ذرائع توصلهم بما انقطع من ثقة الناس بهم بعد قضاء ايام العقاب .